المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
معهد تعليم اللغة العربية
قسم علم اللغة التطبيقي

الفكر اللغوي الاجتماعي عند الجاحظ

في كتاب البيان والتبيين

(رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة التطبيقي)

إعداد:

رياض بن صالح بن إبراهيم الذيب

إشراف:

الدكتور إبراهيم بن عبد العزيز أبوحيمد

الأستاذ المشارك بقسم علم اللغة التطبيقي

العام الجامعي :

(١٤٢٩ - ١٤٣٠)هـ

مقدمة البحث

رأيتُني مشدوداً إلى علم اللغة الاجتماعي منذ دراستي له في السنة التمهيدية لمرحلة الماجستير، ذلك العلم الحديث الذي أخذ مكانته بين الدراسات اللغوية المعاصرة، وعوّلت كثير منها عليه، لذا قررت المضي في هذا المسلك. وحيث كنتُ منجذباً فكراً وطبعاً إلى تراثنا العربي الذي يدعونا دوماً لقراءته، واستعادة حمله على المنظور المنهجي المتجدد، وحمل الرؤى النقدية المعاصرة عليه. تولدتْ فكرة تشبع شغفي بهذين المسلكين من الدرس، يدفعها طموحٌ للإسهام في تأسيس المستقبل على أصول الماضي. وفي ذلك يقول الدكتور عبد السلام المسدي:

"إن مبدأ استلهام التراث يتنزل اليوم لدى العرب في عصرنا مترلة مولّد التأصيل الفردي الذي بدونه يظل الفكر العربي سجين الأخذ، محظوراً عليه العطاء ... مع أن تراثنا يمدنا بالخامة الولود التي يمكن أن نتخذ منها محوراً لموقف عربي أصيل، إزاء القضايا الإنسانية الكبرى المطروحة على الألسنة والأقلام"(1).

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود:

"ومع ذلك ترانا أحد رجلين؛ فإما ناقل لفكر غربي، وإما ناشر لفكر عربي قديم، فلا النقل في الحالة الأولى ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكراً عربياً معاصراً؛ لأننا في الحالة الأولى سنفقد عنصر "العربي" وفي الحالة الثانية سنفتقد عنصر "المعاصرة" والمطلوب هو أن نستوحي لخلق فكر جديد سواء عبرنا لننقل عن الغرب أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين"(2).

---

(1) التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د. عبد السلام المسدي ، ص١٢ . ، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨١.

(2) تجديد الفكر العربي: د. زكي نجيب محمود، دار الشروق– القاهرة. ط٢– ١٩٧٣– ص ٢٥٤.

فرحت أبحث في التراث عمن كان له اهتمام ونظر في الجانب الاجتماعي للغة، فوجدت أقوالاً جيدةً لدى الجاحظ(ت:٢٥٥) وابن جني(ت٣٩٢) وعبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١) وحازم القرطاجني(ت٦٩٤) وابن خلدون(ت٨٠٨) وغيرهم.

وثبتُّ أخيراً على الجاحظ وابن خلدون، لما حفلت به مؤلفاتهما من الإشارات الاجتماعية للغة، وتحديداً ما حواه أشهر كتبهما وأغناها مادة وهما: "البيان والتبيين" و"مقدمة ابن خلدون".

لكني بعد البداية الفعلية في البحث وبعد تجميع المادة العلمية من الكتابين وجدتُ أن الواحد منهما يكفي للقيام بدراسة متكاملة وأكثر، فتوقفتُ عن العمل في مقدمة ابن خلدون وركزتُ جهدي على الجاحظ طمعاً في الخروج بدراسة أكثر عمقاً.

وعند اختياري الجاحظ [٣] موضوعاً للبحث أدركتُ الصعوبة في الكشف عن جانب جديد لهذا الأثر التراثي العظيم، لسيل الدراسات التي تناولته.

---

(٣) الجاحظ (١٥٩– ٢٥٥) هـ / (٧٧٦ –٨٦٩) م

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانيّ، أديب وعالم موسوعي اشتهر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه وكان إلى ذلك جهم الخلقة دميماً. ولد في البصرة وفيها نشأ وترعرع.

كان أول أمره يبيع الخبز والسمك بالقرب من البصرة بالعراق، لكن شغفه بالعلم والقراءة دفعاه لطلب العلم في سن مبكّرة، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، وكان قد اعتاد أن يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها ليطالع الكتب التي لا يقدر على اقتنائها، المؤلفة منها والمترجمة، في مختلف العلوم وفروع المعرفة. ساعده في ذلك ما وُهبه من قوة حفظ وسرعة خاطر، فألم بمختلف العلوم والمعارف وحصل على ذخيرة وافرة من ثقافة عصره وأخبار الأولين، والتاريخ والكلام والطبيعيات والفلسفة.

بعد ذلك درس اللغة والأدب والشعر والأخبار على أشهر علماء البصرة منهم أبو عبيدة بن المثنى، وأبو زيد الأنصاري، والأصمعي، ودرس النحو على الأخفش. أما علم الكلام وأصول المعتزلة فقد درسهما على شيخ المعتزلة أبي إسحاق النظام، ثم انتقل إلى بغداد واتصل بشيوخ اللغة والنحو والأدب والفلسفة والتاريخ وأفاد منهم كثيرا، كما أخذ الفصاحة من شفاه العرب، وعندما قصد بغداد طلبته قصور الخلفاء والوزراء والكبار. فولاه الخليفة المأمون (ابن الرشيد) ١٩٨ – ٢١٨ هـ ديوان الرسائل فلم يستطع البقاء تحت قيود الوظيفة، ثم زار دمشق وأنطاكية وربما مصر.

اختلط الجاحظ بمختلف طبقات المجتمع من رجال الدولة وعلمائها وأدبائها، وعامة الناس، واطلع على العديد من الأوضاع الاجتماعية، فوعى كل ذلك وأحسن تسجيله ووصفه، مما أتاح له أن يصنف عددا كبيرا

من الكتب والرسائل في شتى العلوم، حيث إن عمره الطويل أتاح له ذلك فقد كانت ولادة الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ووفاته في خلافة المهتدي بالله سنة ٢٥٥ هجرية، فعاصر بذلك ١٢ خليفة عباسياً هم: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله، وعاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها.

اتصل الجاحظ برجال الدولة في سامراء فكسب صداقتهم ورعايتهم، ولازم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وهو أديب شاعر، والفتح بن خاقان الذي كان كالجاحظ في حبه الكتاب والمطالعة، ولم يكد يفارقه كتاب حتى في مجلس الخليفة، وإبراهيم بن العباس الكاتب الشاعر، ثم قاضي القضاة أحمد بن دؤاد كبير المتكلمين وزعيم الاعتزال. وكان الجاحظ يلازم الوزير ابن الزيات مختصا به مقربا منه، ومنصرفا عن أحمد بن دؤاد للمنافسة بين الوزير وقاضي القضاة، ولما قبض الخليفة المتوكل على ابن الزيات هرب الجاحظ، ولما قتل ابن الزيات جيء بالجاحظ مقيدا إلى أحمد بن دؤاد، فنظر إليه أحمد وقال: والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة، كفورا للصنيعة، معددا للمساوئ وما فتني باستصلاحي لك ولكن الأيام لا تصلح منك إلا لفساد طويتك ورداءة داخلتك وسوء اختيارك وتغالب طبعك. فقال الجاحظ: "خفض عليك أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر علي خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن وتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني، فقال له ابن دؤاد: قبحك الله، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام... فقال: جيئوا بحداد، فقال: أعز الله القاضي ليفك عني أو ليزدني؟ فقال: بل ليفك عنك. فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ويطيل أمره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه... ثم قال: يا غلام صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفا، فلبس ذلك، ثم أتاه فتصدر في مجلسه.

أصيب الجاحظ في أواخر أيامه بالفالج، فكان نصفه مفلوجا لو نشر بالمناشير ما أحسّ بها، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه. ثم توفي في البصرة في شهر المحرم عام ٢٥٥هـ / ٨٦٩ م في عهد المهتدي بالله، بعد أن جاوز التسعين من عمره، وقيل إنه أناف على المئة، بعضهم يذكر أن ولادته كانت سنة ١٥٠هـ. وقيل في موته إنه توفي بوقوع مجلدات الكتب عليه، إذ اعتاد أن يصف كتبه قائمة محيطة به، وكان عليلا فسقطت عليه فمات.

ترك الجاحظ مؤلفات عديدة في شتى مجالات المعرفة، كما ترك مؤلفات تمثل مدرستين متميزتين أحداهما أدبية والأخرى في علم الكلام، فيذكر أن ما ألّفه زاد على ٣٥٠ كتاباً، صوّر فيها جميع مظاهر النشاط في المجتمع الإسلامي، ولم يترك الجاحظ موضوعاً اجتماعياً أو ثقافياً أو أدبياً إلا كتب فيه، فمن مؤلفاته الأدبية: البيان والتبيين، وكتاب البخلاء، والمزاح والجد، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب عناصر الأدب، وكتاب الأمثال، وكتاب التاج في أخلاق الملوك. ومن مؤلفاته في علم الكلام: الحجة في ثبت النبوة، والرد على اليهود، والرد على الجهمية، وكتاب الحيوان وهو الكتاب الذي انفرد به الجاحظ عن علماء عصره ومن تلوه.

فقد ألف الجـــــاحظ "البيان والتبيين"[٤] آواخر حياته سنة ٢٣٣هـــ تقريباً، ومن ثم جاء خلاصة لآراء تمخضت عن تجربة، وصدرتْ عن ممارسة، بما وهب الله الجاحظ مـــن قدرة على الرؤية والرصد، والملاحظة والتدوين، والاختبار والسبر، ما جعله يصدر لنا كثيراً من الأفكار المتطورة والرؤى المتعمقة.

كانت كتاباته على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والتهكم. كما أنه وُهب روحا فنية كانت تسيطر على ما يكتبه، فكانت أغلب المواضيع التي كتب فيها قريبة إلى حياة الناس وأذواقهم وأفهامهم وتراثهم.

مصادر ومراجع في ترجمة الجاحظ:

- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، مج ١٢ ص ٢٢٠.
- معجم الأدباء : ياقوت الحموي، دار مأمون ، القاهرة، مج١٦ ص٧٤.
- تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان ، مراجعة د. شوقي ضـيف، دار الهـلال، القـاهرة ١٩٥٧
مج ٢ ص ١٩٣.
- الجاحظ في حياته وأدبه وفكره: د.جميل جبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩
- أبو عثمان الجاحظ :محمد عبد المنعم خفاجي، ص١٧، دار الكتاب اللبنـاني، ط١ ، بيـروت ١٩٧٣
- الجاحظ حياته وآثاره: د.طه الحاجري . ط ٣ . دار المعارف، مصر ١٩٧٦

(٤) "البيان والتبيين" من أضخم مؤلفات الجاحظ، وهو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم ويربو على سـائر كتبه. ينحو الجاحظ في هذا الكتاب منحى فلسفياً. فلا يكتفي بعرض منتخبات أدبيـة مـن خطـب ورسـائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح، وقد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: "هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شـابه ذلـك مـن غـرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المسـتخرجة، والمقطعـات المتخيـرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة"

نلفى في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثاً في البيان والتبيين، ومجموعات مـن الأحاديـث والخطـب والمقطعات والجوابات والأشعار. ولقد التزم الجاحظ هذا التصميم وقصد إليه قصداً ليجنب القارئ الملـل أو السأم بتنويع الموضوعات. وقد عبر عن ذلك بقوله: "وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشـاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعـد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم".

تحدث عن "البيان والتبيين" أبو هلال العسكري في الصناعتين، وابن خلدون في المقدمة، وابن وهب الكاتـب، وابن رشيق القيرواني وغيرهم

وارجع إلى مقدمة المحقق الشيخ عبد السلام هارون لمزيد من المعلومات حول الكتاب.

وعناية المتقدمين والمتأخرين به، رغم كثرتها تبقى أنها لم تستوفِ كل جوانبه. ومن هنا تولدت فكرة الكشف عن جانب مهمل في هذا التراث وهو البعد الاجتماعي للظاهرة اللغوية. حيث إن الجاحظ –كما سيتبين في هذا البحث– لم يعالج اللغة بمعزل عن المجتمع، بل كانت ملاحظاته كلها تنبع من صميم الواقع العربي الذي عاصره.

فبدأت مستعيناً بالله في قراءة الكتاب قراءة فحص وتنقيب عن الملامح اللسانية الاجتماعية، حتى إذا تجمع لديّ قدرٌ لا بأس به مما أحسبه يندرج في قضايا علم اللغة الاجتماعي أخضعته للدراسة العلمية، وقاربته بالنظريات اللسانية الحديثة.

مشكلة البحث وأسئلته:

دراسة اللغة دون الإشارة إلى المجتمع وأخذه في الحسبان نظرة غير دقيقة، ولا يمكن فهم اللغة أو دراستها وتحليلها وتعليمها وتعلمها منعزلة عن سياقها الاجتماعي، حيث إن ذلك يفوّتُ على الباحث جانباً مهماً و مجالاً واسعاً في النظرة التكاملية للغة. يقول هدسون: "إن دراسة اللغة دون الرجوع إلى السياق الاجتماعي جهد لا يستحق العناء" (٥)

وقد درج الدرس اللغوي في التراث العربي على مناهج محددة، مغفلاً النظرة التي تقرن بين البنية اللغوية وبنية المجتمع، أو مقصّراً فيها. وهو بذلك يُضيع كثيراً من الحقائق الجديرة بالملاحظة في بحوث اللغة ذاتها؛ إذ اللغة ما هي إلا صورة لحياة الأمة بجميع نظمها وتقاليدها واتجاهاتها الدينية والفكرية والاجتماعية. وتحليل اللغة حين نغفل البُعد الاجتماعي سيكون ناقصاً أو مبتوراً.

لذا فمشكلة البحث تتمثل في سؤال البحث الكلي وهو:

هل هناك جذور عربية تراثية لقضايا علم اللغة الاجتماعي يمكن تبينها من خلال "البيان والتبيين"؟

ويمكننا تفريع هذا السؤال الإجمالي إلى الأسئلة التفريعية الآتية:

---

(٥) علم اللغة الاجتماعي:هدسون، ترجمة محمود عبد الغني عياد (ص:١٨) دار الشئون الثقافية العامة.ط١، ١٩٨٧م

قائمة المحتويات